

الحياة في منتهاتها

— سعدى يوسف —

أنحن مندفعون إلى المثال من واقعٍ ملتبسٍ ، أم
مندفعون إلى الواقع من مثالٍ ملتبسٍ ؟

عودة إلى حيفا .

أم عودة منها؟

أنا باز إزاء كاباباز؟

العودتان كلتاهما (في نسيج الأثر الفني) هما الجدُلُ مستعراً، جدُلُ
الواقع والمثال، الذي أوصل غساناً إلى الحلّ .
ولم يكن الحلّ سوى الأبهى، لم يكن سوى الفنّ .

لكنّ المرء قد يتساءل :

وماذا نحن فاعلون بكلّ التاريخ الطويل العريض لغسان؟

ماذا نحن فاعلون بموجة حياته التي لم تنكسر؟

مرارة الليالي السياسيّة وحراراتها، والليالي التي قلبتنا في الحلم/
الكابوس، كأنما نحن وهي على جمر . . .

أتشطب الأمور هكذا؟

حتىّ الذاكرة المفقودة تأتي هذا، وتتأبى .

وفلسطين متّقدة في العينين الخضراوين .

نحن، حول مائدة غسان .

وهو بيننا . كاملاً، متكاملأً، كما هو . بحياته الطويلة العريضة،

ويابداعه : الثمرة الذهبيّة لهذه الحياة .

إنّ تكوين الفنّان عمليّة معقّدة، تستغرق جوانب الحياة كلّها،
وتستنفدها . تستغرق وتستنفد كلّ تفصيلٍ، سواء كان واجهةً
عريضةً أو سرّاً مكنوناً .

وقد وضع غسان خبرة سيرورته الكثيفة في خدمة منتهى جميل،
هو الإبداع .

قال بول فرلين في قصيدة نُشرت بعد رحيله :

«الشاعرُ أتمُّ مهمّته .

الرجلُ، لا» .

ها نحن أولاء نجتمع .

نجتمع حول المائدة المتقشّفة، الغنيّة، لغسان كنفاني .

أكانت الأعوامُ العشرون سوى تنويعٍ أمانَ حَوْلِ المائدة ذاتها؟
والمصائرُ؟

أترانا لم نجدُ، عبر تلك الأعوام العشرين، إلاّ المائدة ذاتها، أم
أنّ المائدة - بجذبها العميق - هي خيارنا الذي طالما حاورناه؟ فدائير
فكريّ:

أنحن مندفعون إلى المثال من واقعٍ ملتبسٍ ، أم مندفعون إلى
الواقع من مثالٍ ملتبسٍ ؟

جدلّ الواقع والمثال يبدو شديد الوطأة والنتائج لدى غسان
رَبِيح، في مسيرته العامّة تحديداً .

في الكويت، قوميّة متطرّفة حدّ إلغاء سواها .

وفي بيروت، ماركسيّة متعصّبة حدّ العسكرة .

والواقع هو المرفوضُ دوماً، هنا، وهناك .

«النادي العربي» في الكويت كان يطمح إلى واقعٍ آخر .

و«الهدف» في بيروت كانت تطمح أيضاً .

وغسان، لم يتمّ رحلته، لا في «النادي العربي»، ولا في
«الهدف» .

ظلّ الواقع ملتبساً .

والمثال كذلك .

الإبداع وحده، كان ملكوت الحرية، لدى غسان .

حيفا: الواقع والمثال، في آن .

وها هو ذا غسان يعود إليها، إلى الحلم المجسّد .

والنتيجة :

أن يتهشمّ الحلم، ليولد واقعٌ بالغ التعقيد؛ واقعٌ يتعيّن علينا،
بغية فهمه، والتأثير فيه، أن نسلح برؤيةٍ وأداةٍ بالغتيّ الجدّة، بل
مختلفتين عمّا سبقهما من رؤى وأدوات .